

في اشتقاق كلمة صوفي

ردا على الاستاذ مرجليوث

بقلم الأستاذ

عجل لطفى جمعه



يظهر أن كلمة « صوفي » اثار جدلا كبيرا في الهيئات العلمية المختلفة ؛ بدليل ماوردنا من رسائل متعددة الوضع : متبينة الفكرة ؛ وكنا قد كتبنا ردًا طويلا على العلامة مرجليوث ؛ قصدنا به إلى تدعيم رأينا من غير ما تعجز أو تعصب ؛ وفي رفق ولين ، ولكن الرسائل التي وصلتنا - وجلها إن لم يكن كلها - شديد اللهجة ، اضطرتنا للاكتفاء بتقديم رد حضرة الاستاذ الكبير محمد لطفى جمعه على من عناه ، حيث جمع في رده بين الطريقتين ووفق بين أسلوبي أصحاب الردود .
والاستاذ لطفى جمعه ؛ كاتب من أكبر كتابنا الممتازين ؛ الذين لهم جولات صادقات في ميادين العلم والأدب والاجتماع والثقافة على تباين فروعها .

وبعد الاستاذ جمعه ، زعيم من زعماء المدرستين القديمة والحديثة معا .

وإذا كان القراء يرون في أسلوبه شيئا من الشدة فرجع ذلك

لا إلى تعصب في الرجل - كما يبدو لأول وهلة - وإنما يرجع إلى يقين الاستاذ بما يقرر .
وقديما قال افلاطون تلميذ سقراط ، إنني أحب سقراط ، ولكنني أحب الحق أكثر منه .

المحرر

قد اطلعت مصادفة على ملاحظة الأستاذ مرجليوث على البحث القيم الممتع الذي استوفاه الأديب الفاضل السيد عبد العزيز مصطفى الأسلامبولي في كلمة صوفي . وكان السيد عبد العزيز قد عدد آراء تسعة فرفض الثمانية واستصوب واحداً وهو اشتقاق الكلمة العربية من كلمة يونانية معناها الحكمة . ويظهر أن الأستاذ مرجليوث يشكر ذلك ، ويأباه ، ولكن في غير صراحة ، ولذا نراكم ذكر مراجع ومصادر على صورة يسمح لنا بالقول بأنها غير مستقيمة فتراه مثلاً ذكر نص ص ١٦٢ من كتاب الولاية وكتاب القضاة تأليف أبي عمر محمد بن يوسف الإسكندري المصري مهذباً ومصححاً بقلم رفيع كست

Rhuvon Guese طبع بيروت سنة ١٩٠٨ ولیدن سنة ١٩١٢ من ضمن كتب إحياء ذكرى جيب وهو «وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية (في الاصل : الصوفية . واتبعنا الخطط ج ١ ص ١٧٣) يأمررون بالمعروف فيما زعموا ويعارضون السلطان في أمره فترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي » ذكر هذا النص ولم يذكر نص صفحة ٤٤٠ من الكتاب نفسه وهو :

« كان عيسى بن المنكر يقرأ وكانت طائفة قد أحاطت به يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر فلما ولي القضاء كانت تأتيه وهو في مجلس حكمه فتقول « أيها القاضي ذهب الاسلام افعلكيت وكيت ، فيترك مجلس الحكم ويمضي معهم فكلمه إخوانه مثل ابن عبد الله الحكم وغيره فقال لا بد من القيام لله عز وجل بحقوقه » وادعى أن الكندي أبدى رأيا (ماهو ؟) وأراد أن يؤيده بما ورد في « مروج الذهب للمسعودي » فأورد استدلال يحيى بن اكنم على كون الرجل صوفيا من أن « عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة » وصور لنا ذلك الصوفي في هيئة الرجل الشجاع الذي يدخل على المأمون للمناظرة ، وان هذا الطلب وحده دل يحيى على أن الرجل صوفيا ، وأن الرجل بعد أن حادث المأمون عاد إلى رفاقه وقال لهم ملخصاً مقابله مع المأمون « إنه ضبط أمر المسلمين حتى تأمن سبلهم ويقوم بالحاج وبجاهد في سبيل الله ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا تعطل الاحكام فاذا رضى المسلمون برجل فاجتمعوا عليه سلم إليه الامر وخرج إليه منه » فلما سمعوا « تقريره » عن مقابله المأمون قالوا : ما نرى بهذا الامر بأسا وافترقوا . وذكر خبر المقدسي وغيره يؤيد به أن كلمة صوفية مشتقة من صوف . وهو بذلك يرغب أن يبعدهم عن كلمة الحكمة (صوفيا اليونانية) التي ردها العالم الاديب الاسلامبولي إليها ، ويريد أن يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الاسلام من صفة الحكمة والفضيلة . . وتمثل فيما تمثل به بنص للجاحظ أدخل فيه الصوفية في أهل النقص فقال « اذا كان المسلم فشلا يبغيض العمل تطرف وأظهر تحريم المكاسب وعادسا ئلا وجعل مسئلة وسيلة الي تعظيم الناس له » وفي هذا النص (ص ١٠٣ ج ١ من الحيوان) أن الشخص الذي كان يستميل الناس بلبس الصوف هو النصراني دون الصوفي المسلم . فهو ضد مرجليوث ، لانه كان يقول إن لبس الصوف هو العلامة الوحيدة التي يتميز بها الصوفي المسلم ، واستشهد بالكندي والطبري والمسعودي والاغانى والمقدسي وغيرهم ، فلما أورد نص الجاحظ رأى أنه ضده . لأنه يخص النصراني المترهبين بلبس الصوف وهو الذي شاهده عند القساوسة من فرنسيسكان ودومنيكان وغيرهم .

أما الصوفيون فقد ذكرهم الجاحظ بغير اشارة إلى ثيابهم التي تتميزهم ، وكان

الأولى بالاستاذ مرجليوث أن يحذف هذا النص من قائمة أمثله ، ولكنه ذكره
لحاجة في نفسه ، وهي أن الجاحظ جعل الصوفية من أهل النقص ، وقد لفت هو نظر
القارىء الى تلك الملاحظة وفسرها وأيدها بقوله « ويطابق ذلك ما أخبر به الكندي
والمسعودى من معارضتهم أمر السلطان » وكأن الأستاذ مرجليوث يعتبر معارضة أمر
السلطان نقصاً ، حتى ولو كانت المعارضة في المظالم . ونحن نعجب من رأى كهذا عند رجل يعيش بين
أمة أشهر صفة من صفاتها القومية معارضة أمر السلطان فيما لا يتفق مع المصلحة العامة
والعدل والانصاف ، وكنا نعتقد أن الاستاذ مرجليوث يعتقد رأياً عكسياً وهو أن معارضة
أمر السلطان في الرذائل من الفضائل والكمالات وليس نقصاً . غير أننا بالرجوع
إلى نصوص الكندي والمسعودى تبين أن الكندي ذكر عنهم الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر قبل ذكر معارضة السلطان ، ويفهم من سياق الحديث أن معارضة السلطان هي
في ذلك يعنى أنهم يطلبون اصلاحاً . أما نص ص ٤٤٠ فهو في هذا المعنى أظهر
وأوضح ، فانه لما ولى عيسى بن المنكدر القضاء كانت تأتيه جماعة الصوفية في مجلس
حكاه فتقول « أيها القاضي ذهب الاسلام ! فعل كيت وكيت ، فيترك مجلس الحكم
ويمضى معهم (للنظر في شكايهم) فكلمه إخوانه مثل عبدالله الحكم وغيره (أى
نحوه عن القيام مع الصوفية للنظر في ظلامتهم ولأحقاق ما يروونه حقاً) فقال القاضي
لأخوانه : لابد من القيام لله عز وجل بحقوقه .

وظاهر من هذا النص أن الصوفية كانوا يعينون القاضي على القيام بحقوقه اليه عز
وجل ، وليست هذه من صفات أهل النقص ، وليس إذن خبر الكندي يؤيد تهمة الجاحظ
إياهم بأنهم طائفة من أهل النقص كاليهود الذين يتسكون فيباغون في السبب أو النصاري
الذين يترهبون ! بل أكثر من هذا ، فقد روي الكندي نفسه أن الصوفية أتوا القاضي عيسى
ابن المنكدر وقالوا « إن أمير المؤمنين (المأمون) قد ولى أبا اسحاق بن الرشيد مصر ، وإننا
نخافه ونخشى أن يشد على يد أهل العدوان (ان يكون عوناً لأهل الشر) فكتب لنا
كتاباً الى المأمون بأنك لا ترضى بولايته . » فافتنع ابن المنكدر برأيهم وفعل ما طلبوا اليه
وبلغ الكتاب المأمون فأحضر أبا اسحاق فقال : ما الذي فعلت في أهل مصر ؟ اه
(من ص ٤٤٠ للكندي)

وهذا النص نفسه يدل أيضاً على شدة اهتمام الصوفية باستقامة الوالى ، وهذا
الاهتمام لا يصدر عن نقص ، واذن فهو لا يؤيد الجاحظ .

وأما خبر المسعودى الذى يريد الاستاذ مرجليوث أن يقنعنا بأنه يؤيد الجاحظ في وصفه إياهم
بالنقص ، فقد جاء فيه وصف الصوفية بأنهم جماعة شبه سرية لهم رقابة معنوية على الخليعة

أوفدوا واحدا منهم ليتفاهم معه، فلما ناظره (وهو صاحب الثياب الغلاظ المشمرة) واقتنع بصلاحه واستعداده للتنازل عن الامر، اذا تقدم له من هو أفضل منه ، عرض حاله على رفاقه الذين كانوا ينتظرونه في المسجد فأقروه وتفرقوا. فأين هذا من النقص الذي ألصقه الجاحظ بالصوفية اعتبارا أو انتقاما لأنهم من فرقة غير فرقته ، وطار به الاستاذ مرجليوث فرحا ؟ وبناء على ما سبق ذكره يسكن الاستاذ مرجليوث الى اشتقاق الكلمة من الصوف « وليس في ذلك ما يدل على أنهم ادعوا حكمة ينتسبون اليها » وهذا بيت القصيدة ومربط القرس ، وغاية الغايات عند الاستاذ الذي يريد اقضاءهم عن الحكمة اليونانية ويرجعهم الى شكل الثياب . وهذه شنشة نعرفها من أخزم ، فليست هذه هي المرة الأولى التي يخالف فيها الاستاذ مرجليوث الحقيقة للانتقاص من قدر الاسلام والمسلمين ، فقد سبق له أن وضع كتابا في ترجمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو حلقة من سلسلة « أبطال الأمم » . وبدلا من أن يسلك مسلك الأنصاف والمحايدة والبعد عن الغرض في سرد تاريخ النبي وأعماله وانتقاد ما يرى انتقاده بالاسلوب العلمي ، تراه جعل من كتابه حملة شعواء على الاسلام ونييه فانهم الاسلام بالتعصب الذميم (ص ٢) وأن الاشهر الحرام لم يكن المقصود منها الحج وزيارة الاماكن المقدسة ولكن غايتها الحصاد وتناسل الانعام، وان سوق عكاظ كانت مكانا للفسق والاختلاط بالنساء ، وان محمدا صلى الله عليه وسلم ورث عن والديه بنية قوية تجعله يحتمل المتاعب ، ولكنه كان مصابا بالصرع (ص ٤٥)

فانظر التناقض بين قوة البنية والصرع !! واستدل على اصابة النبي بالصرع من إنغمائه في موقعة بدر ويوم أن كان صائما فقصده (عن المسند ج ١ ص ١٤٨) . ولم يدرك مرجليوث ان الانغماء في ذاته لا يدل على الصرع، ولكنه يدل على انتهاك القوى اضعف عضوى في القلب ، وكلاهما لا يضير المصاب بهما . فانتهاك القوى طارىء على كل انسان وكذلك ضعف القلب أما الصرع فداء يدل على مرض في العقل، وينتهي دائما بالجنون في حين أن (جاورز) كتب في (ص ١٣٠) من كتابه : ان أعراض الصرع لم تكن موجودة عند النبي وهي معروفة للخاص والعام، واهمها عض اللسان ، وانسباط اليد فيقع منها ما كان بها (أى اليد) وانحطاط العقل بالتدريج... كل هذه الاعراض الطبية العلمية لم يكن النبي مصابا بها ولا بواحد منها، ولم يعلم ان حالة منها قد حدثت له ، وقد كان اعداؤه - وكلهم من الاقوياء - واقفين له بالمرصاد ومتربصين لأى نقص يعتوره فيسذعوه ، ولم يكن هذا الداء الويل ليخفى عليهم . وادعى مرجليوث أيضا انه جاء من اسيرة وضيفة (ص ٤٧) مع ان اسيرة هاشم كانت اعظم فرع من دوحه قريش ، وقريش كانت أعظم قبيلة في العرب . وادعى أن سدانة الكعبة لعبد المطلب أسطورة وليست حقيقة تاريخية (ص ٤٨) وأن الفيل الذي ساقه أبرهة على الكعبة كان اسمه

محمد داود سمي النبي باسمه لانه ولد في تلك السنة عام الفيل (ص ٥٠) وأنه اعتبر الكلاب نجسة لانه كان يعضها (ص ٥٣) وأنه لابد سافر عن طريق البحر لورود وصف سفر البحر في القرآن (ص ٥٧) وأنه سافر الى مصر لان كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها (ص ٥٧) مع ان (نولدكه) وهو مستشرق هولندي ولبس من أصدقاء الاسلام ذكر في مذكراته حرف c ج ٢ : ان محمداً لم يكن يعلم ان المطر قليل في مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر اليها لعلم تلك الحقيقة التي لا تخفى على أحد ممن يزور مصر . وأنه انتقم لجهله الشعر والكتابة بوضع القرآن على أسلوب السجع (ص ٦٠) وأنه كان شديد الطيرة (ص ٦١) مع أن الاحاديث الصحيحة تثبت أنه يكره الفأل والشؤم وينهي عنهما . وأنه كان يتقاضى أجرا من المذموم الذي يشفى بقراءة المعوذتين (ص ٦٢) وأنه صار رئيس لصوص أو قطاع الطريق Captain of Banditti (ص ٦٣) وان العناية بنفسه والحفاظ على حياته كانتا أكبر همه (ص ٦٥) وأن القرآن مكتوب بلغة تجارية لأن صنعة محمد كانت التجارة ، حتى اعلان رأى المؤمنين في اختياره ، سماه مبايعة (ص ٦٩) وكان الاسلام في بدايته نواة لجمعية سرية ، وان محمداً كان بطيئا في الكلام ولم يكن حاضر البديهة (ص ٧٢) وأنه لم ينتحل النصرانية لانه كان وطنيا لا يقبل ان يدخل نيراً اجنبيا في وطنه (ص ٧٧) وان محمداً كان يعتقد ان جودا (يهوزا الاسخريوطي) هو الذي صلب ، وان النبي الصادق انتصر ونجا ، وهو يتفق في هذا الرأي مع طائفة الجوليانية ، (ص ٧٨) وكان في بعض الاحيان ينطق بالنحش (ص ٨٣) وان أبا بكر وإن كانت له قيمة لا تقدر إلا انه لم يكن شريكا في الجريمة Complice (ص ٨٠) أى جريمة خداع العالم ، وان طريقة محمد في اظهار الوحى مثل طريقة الخواجا (! !) جوزيف شميث الغشاش المسيحي (ص ٩١) ولا فضل لمحمد في ايمان خديجة ، لأن ابن عمها ربما كان جهزها للثورة على عبادة الاوثان التي كانت في مكة (ص ٩٣) يعنى أن محمداً لا فضل له حتى في التأثير في زوجته الاولى التي كانت تحبه حباً فائقا والتي كان يحبها ، وقال : انها لو عاشت ماتت من سواها (راجع حديث عائشة في البخاري) «أنفتأ تذكر تلك العجوز من قرش الخ» (وأن عثمان لم يسلم الا لأنه احب رقية بنت النبي وأراد زواجها فجعل الاسلام ممنا لذلك .

والكتاب يقع في خمسمائة صفحة ، وهذا بعض ما جاء في مائة منه ، فما بالك بكل ما ورد فيه من المخازي والساوئ المكدوبة البدالة على أعصاب مرجليوث و بفضه الاسلام وحقدده عليه وحملته على رسوله وعلى أنصاره ؟ والرجل يحقد على الاسلام من قديم الزمان ؟ محمد لطفي جمعه